الفن والمجتمع

الدكتور ابراهيم ناجي

سادتي الأفاضل : المشكلة ليست في هل الفن لنفسه أو للمجتمع ، وإنما المشكلة في كلمة الفن وكلمة المجتمع . سنحاول أولاً أن نعرف ما هو الفن وثانياً ما هو المجتمع . فإذا وفقنا في التعريف فقد يمكن أن نصل إلى نقطة يتلاقيان عندها ، في المبدأ أو في النهاية أو في الوسط ، فإذا تلاقيا ، فالواحد منهما للآخر ، وما في ذلك جدال ، وإذا لم يتلاقيا ، فليمض كلٌّ في طريقه وليعش كلٌّ لذاته ، وليبق كلٌّ لنفسه ... ما هو الفن ؟؟ لقد صارت هذه الكلمة غامضة مبهمة وغدت تطلق على أشياء كثيرة لا علاقة لها بصميم الأمر وجوهره

الحياة فن ، والتفكير فن ، والعمل فن ، حتى أن أندريه موروى في كتابه عن فن الحياة ، يعقد فصلاً خاصاً عن فن الشيب l'art de vieillir

ثم تدخل المطاعم والمقاهي والصالونات الفخمة ، فتجد المقاعد المنوعة والأنوار المختلفة ، وتجد الأثاث مرتباً بشكل « فني » ، وحتى المنضدة تجدها وقد أقيمت على منضدة بشكل « فني » ثم تدخل بيوت المسرة وذوي الجاه فتلقى عيناك باللوحات الزيتية ، وبالصور المدهشة الألوان ، وترفع عينيك إلى الستر التي تغطي النوافذ ، وإلى الرسوم التي في السقف ، وإلى النقوش التي على الجدران والأبواب فتجد كل هذا معدوداً من « الفن » ...

أما الطراز الأول فمعناه أن الفن هو الاتقان . ومعنى الطراز الثاني أن تراكم الألوان واختلاف الأضواء والصور على اللوحات الغالية والمقاعد الأثرية ، تدعى فناً ، والصواب أنها مظهر من مظاهر الترف ، وعنوان على البذخ ، ودليل على أن صاحب هذا الشيء أو ذاك متميز بمكانه الاجتماعي .. وليس الأول فناً ، ولا الثاني ، والفن من هذا وذاك بريء ...

وفهم الفن على هذه الصفة مفسدٌ لأصوله ، مضيعٌ لجوهره ، ذاهبٌ بمعناه

والفن على حقيقته شيء واضح لا يجب أن يكتنفه الغموض ، ولا يجب أن يختلط بالاتقان المحض ، ولا بالألوان البراقة والأضواء الخادعة والظلال الكاذبة ...

لقد ذهبت أستقصي جميع تعاريف الفن ، عند المفكرين والفلاسفة ، فأحببت أن أعرض على حضراتكم خلاصة تلك التعاريف وفي هذا العرض لذة وفائدة

أولاً : التعريف العلمي عن شيلر وداروين وسبنسر

(١) الفن نشاط خاص منشؤه الحاسة الجنسية والميل الى اللعب ومصحوب بتأثير سار في المجموع العصبي

أما ان منشؤه الحاسة الجنسية فيكفي للدلالة على ذلك ، الألوان البديعة والأزهار الرائعة التي تكسو بعض الحيوان ، وتكون على أشدها في الربيع وتلك الأغاني والأناشيد المتدفقة من حناجر طائفة عاشقة في مواسم التناسل . . أما تأثيرها السار في المجموع العصبي فذلك ما لا جدال فيه

(٢) التعريف العملي : هو التعبير عن العاطفة بواسطة الخطوط او الألوان أو الخطوات أو الاصوات أو الكلمات

(٣) تعريف سلّي : وهو أحدث التعريفات « هو الاتيان بأمر ثابت او عابر يحدث السرور في نفس المحدث لذلك الأمر ، مع تأثير سار في الناظرين أو المستمعين بلا اعتبار لأي فائدة شخصية » وجميع تلك التعاريف على علاتها ، لا تخلو من الايجاز ، تتحدث عن الفن من ناحية السرور الحادث والتجرد من الغاية ، وقد أشار التعريف الاول اشارة جانبية الى الجمال ، ولم يشر اليه الثاني ولا الثالث ، وبقي أمر هام جداً لم يشر اليه احد من هؤلاء السادة ، وهو الغاية التي يرمي اليها الفن في حياة الانسان والمجتمع

وسأفصل هذه النقطة الاخيرة ، حيث انها في رأيي كل شيء ، كل الموضوع . أما الآن فلأتابع عرض تعاريف المفكرين الذين لهم أثر بعيد في تاريخ الفن او فلسفته

يقول هيجل واتباعه : الجمال هو اشراق الفكرة من خلال المادة . والجمال هو جمال الروح ، والروح لا بد لها من مظهر مادي ، والفن هو الذي يجلو هاته الفكرة ، ليعبر عن أهم مشكلات الانسانية وأجلّ حقائق الروح

فالحق والجمال عنده شيء واحد ، غير ان الحق هو الفكرة مستقرة ، والجمال هو الفكرة مجلوّة ظاهرة ، والفن هو الذي يعبر عن الحق والجمال وهما واحد . . . ويجيء تلميذه فيشر ، فيفرض ان الفن هو مزج الذات بالموضوع واندماج الفرد في الكل ، أي جمع شمل المتناقضات وهذا هو الجمال . وأما مدرسة هربرت فتقول ان الجمال ما هو الا تناسب . . . وعلى الفن ان يكتشف هذا التناسب . وأما شبنهاور فيمزج الجمال بالارادة ، قائلاً ان للارادة طبقات مختلفة والتجرد من الذات لتأمل تلك الطبقات يحدث الشعور بالجمال ، والفنان هو الذي يملك القدرة على التأمل ، والنزوح الى الطبقات العالية !

اما شيلر فيذهب مذهب جرانت آلن وهربرت ، فيقول ان الفن نوع من اللعب ، في الحيوانات السفلى يتصرف كل ما في الحيوان الى المحافظة على الحياة والنوع ، اما في الانسان فيتوفر شيء دائماً اما من القوة البدنية فتتصرف الى اللعب ، وإما من القوة الروحية فتتصرف الى الفن وبقيت مدرسة بوجارتن وهي المدرسة التي اكتسحت بآرائها باقي المدارس ، وأصبحت آراؤها هي السائدة . ان الجمال — في رأيها — هو الكمال منظوراً من خلال الحواس ، والحق هو الكمال منظوراً من خلال العقل ، والخير هو الكمال منظوراً من خلال الاخلاق ... والجميل هو ما تتناسب فيه علاقة الحق بالخير ، وعلاقة الجزء بالكل ، والفن هو الذي يكتشف أحسن هذه النسب وهي على اتمها في الطبيعة وأروع ما تنتج بها تلك الطبيعة ... وملخص هاته الآراء ، ان الفن اما ان يكون شيئاً نباتياً طبيعياً ملازماً للخالق ، واما أن تكون غايته الجمال فحسب ، واما ان يكون معبراً تعبيراً صادقاً عن الواقع . ولماذا كل هذه التعاريج ؟ انا شخصياً أجد الفن أبسط وأحلى من كل ذلك وهاته البساطة هي سر عظمته وسموه . ان المظهر عظيم ببساطته وقلة تعقيده ، ونافع عن غير عمد ومؤثر بدون أن يتكلف التأثير . فماذا نبحث في الفن عن صلته بالخير والحق ، وهما من صلبه وفي صميمه . هذا اذا اخذنا نستعرض الفن وكيف نشأ ولأي غرض ، واذا فهمنا الحدود التي تفصل الفن العالي من الفن التجاري والرخيص ..

أقدم آثار الفن وجدت في الكهوف وقد تركها الانسان الاول ، كانت نحتاً أو نقشاً في الصخر أو من الصخر ولما اخترع الانسان الكلام عبر بالصوت وفي خلال جميع العصور عبر بالحركة وهي الرقص . كان الفن في أول أمره تعبيراً ، وكان تعبيراً عن عاطفة . وكانت تلك العاطفة حباً أو اعجاباً أو عبادة . كانت قرباناً لحبيب أو معبود أو اله ...

على أن ذلك النقش ، ذلك الغناء الكسيح ، تلك الرقصة المكونة من ايقاع متكرر ، تحمل آلاف المعاني ، تحمل اختصار الاحساس الشامل في صورة مركزة ، تحمل في طواياها دفع قوة خالقة مسيطرة ، وتحمل كذلك عبقرية ساذجة ، وطابع جيل

ان ذلك الدافع الاول ، ما زال يتكرر حتى الآن في الفنان ، واني لأتمثله الآن وأشرحه لكم كشاعر ، قد تمر بي الايام متشابهة رتيبة ، كل يوم كغيره ، وكل منظر لا يتميز عن سابقه ، ثم التقي بشخص ، أجد فيه معنى من معاني الجمال ، أحس بقوة خارقة فوق اختياري تدفعني الى التعبير . هذه القوة تسمى بالانكليزية Creative-impulse — قوة الخلق ، وهناك خلق حقيقي ؟ هل نحن نخلق حقيقة ؟ انا في الواقع نتصيد الجمال في عالم مغمور بالجمال تمر به العيون ولا تفهمه ولا تلتفت اليه . أجل نقع على معنى خاص ، على فكرة مستترة ، فنأخذها لنجلوها ونكسوها كالعروس ، ثم نقدمها قرباناً لمن نحب ... أخذنا جمال العالم فاختصرناه في

لفظة أو أمير أو بيت ، طويناها بالتأمل وجعلناه خاشعاً ، احتوينا جمالاً معينه من جنان العالم المنبث العام ، وفرحنا به كما يفرح الطفل باقتناء لعبة من مجموعة لعب ... ثم قدمناها لمن نحب أو نعبد. فاذا كانت فناً — اذا كانت خلقاً — انمحت الحواجز التي بيننا وبينه — نفذنا الى قلبه — تمزقت الحجب — اندمج الواحد في الآخر ، ذلك هو الفن ...

***

كان أناتول فرانس يستمع الى شاعر . فلما انتهى الشاعر من القائه قال لمن حوله ان هذا لا بد أن يكون رائعاً ، اني لم أفهم شيئاً غير انه نفذ الى قلبي فارتجفت ، والفن ارتجاف ...
L'art est tremblement

منذ سنوات سافرت لأزور معرضاً للفن في فينسيا . وكنت أدمن التأمل في الرسوم والتماثيل لأقف على سر الفن العظيم . فقد مرت علي أيام قبل ذلك وأنا مزعزع اليقين . فرأيت في مدخل المعرض تمثالاً يدعى « الحنان » Tendresse لمثال مجهول . يا لله ويا للجمال أي حنان على أي تعروفي أي امرأة انها تحدثك وتناجيك وتطوف حولك بروحها ، وترحب بك وتضمك وتعنيك وتؤويك وتستبقيك ... أجل والله صنعت بي كل هذا فكنت أجلس عند قدميها عندما يفتح المعرض وأنصرف عندما يقفلونه لأعود في اليوم التالي الى ذراعي « الحنان » ...

ساعات تمضي طويلاً ما في هذا التمثال ؟ ماذا أحببته ؟ ربما لا أعرف القواعد الفنية التي تشرح بك ماذا هذا جميل وذاك قبيح ، لا أعرفها ولا أريد أن أعرفها حسبي أنه نفذ الى قلبي وخاطبني ، ان مصدره قلب نابض مشابه لقلبي ، واحساسه احساسي وخواطره خواطري ، لذلك نفذ الي نوراً بلا استئذان ... وآيته تلك البساطة البادية فيه ، وتلك اللغة العامة الشاملة التي يخاطب بها الفن الفرد العادي ، انه من عواطفه نشأ ومن احساساته نبع ، ومن قلبه تفجر ، ولذلك يعود اليه كما صدر عنه ... . ذلك هو الفن الكبير : اللغة العامة الشاملة ، التي تستق من روح الانسان ومن روح الطبيعة ، لتخاطب الفرد وتؤدي اليه رسالة القلب وحديث العاطفة وهي لا تحسن تأدية الرسالة إلا اذا قوي الدافع وبين الغرض وصفا المنبع . إن الحنان في الواقع نتيجة لكل تلك العوامل مجتمعة . وليس محدوداً ولا معروف المقاييس ، وانما هو الأثر العام الذي تحدثه تلك اللغة العامة السماوية . هذا هو الفن وتلك رسالته

***

ما هو المجتمع ؟ المجتمع طبقتان طبقة السراة والحكام ، وطبقة الأفراد العاديين . أما الطبقة الأولى فليس لي حديث معها ، وانها وان كانت شجعت الفن وقامت له بدور الحامي في كثير من الاوقات فاني لا أؤمن بذلك التشجيع ولا تلك الحماية فانهما مظهران من مظاهر الوجاهة والسلطان

والفن ليس هؤلاء تسلية ، وإن كان يرى قصوره ، ويعرض في صورهم ، ولكنه عندهم كذلك مظهر من مظاهر الأسرة ... التي ارجح تمادي الذي هو أنا وأنت : نحن أنا وأنت ، آلامنا وإحساساتنا وآمالنا وحبنا وبغضنا وأحقادنا وأوقات ... ومسراتنا ، المجتمع حياتي وحياتك أيها الصديق : حياتي وحياتك تضيق يوماً وتتسع آخر ، وتشرق فيها الشمس حيناً وتغرب حيناً . وهي هاته التي يتسلمها الفنان ومنها يأخذ مادته موسيقى أو رسماً أو نحتاً أو شعراً ، ثم يردها إلينا ، فإذا كانت منا وردت إلينا فنحن نفهمها بلا واسطة ولا مترجم وهي بقدر ما تحدث فينا السرور والراحة بما تعبر عنه من خواطرنا ، فهي تعلمنا الرشاقة في الحركات ، والجلال في الألوان ، والايقاع البديع في الرقص ، وتربنا كل هذا فنراه مكبراً بأعين ماخفتنا لأنه صادر عنها ، وعندما ينقل الفن إلينا ، تنتقل إلينا منه عدوى تسمى عدوى الفن أي أننا بقدر ما يحدثنا الفن يلهمنا ويسحرنا ويدفعنا الى العمل الطيب النبيل السامي الذي عنه صدر ومنه استقى . . .

فالفن هو تلك الرسالة التي ذكرتها ، والمجتمع هو أنا وأنت ونحن وآلامنا تلهم الفنان وتعطيه مادته ، فكيف لا يكون الفن للجميع هذا هو المجتمع ، فالفن منه وله . والآن ما هي خدمة المجتمع ؟؟ وماذا نريد بها ؟؟ خدمة المجتمع قسمان ، قسم مادي ، وقسم غريب عن المادة ، أما المادة ، وأقصد بالمادة ذلك الشيء الذي يجعلنا نشبع اجسادنا وشهواتنا السفلى وهذا الشيء يمكن الحصول عليه من أي طريق غير الفن . أما الفن الذي يؤدي الخدمة للمجتمع ، فانما يؤدي خدمة روحية ، وإذا قلت روحية فقد قلت اخلاقية ، لأن سمو الروح ينعكس نوراً على الاخلاق ، فيظللها ويجملها ويكملها ... ما هي هاته الخدمة الروحية ؟؟ انه من الثابت الذي لا جدال فيه ، ان الحياة امواج من السرور والألم ، وإن الألم هو الموجب ، والسرور هو السالب ، ومن الثابت أيضاً أننا نعيش بعقلين الواعي ، والباطن ، والواعي هو مركز التفكير والارادة ، وهما سبب الألم والمتاعب فهو موجب ، أما الباطن ، فهو موطن المسرات ، فهو السالب ، أي هو الوطن الذي تهرب فيه النفس من موجب التفكير والارادة الى العالم السلبي الذي نرجع فيه الى خيالنا وشعورنا وأحلامنا . والفن الكبير يخاطب هذا الجزء من نفسنا ، يتجاوز الوعي ، يتخطى التفكير والارادة ، يتكلم مع موضع الراحة والسرور والرضى وكل فن يخاطب العقل ليس بفن

من هنا ينشأ السرور الذي هو غاية الفن ومبتغاه ، الراحة الكبرى التي ذكرها أبو تمام وشوقي ، وعرفاها بالالهام الشعري العجيب

هذه هي الخدمة الأولى الخدمة الكبرى للفن ، وحسبكم ذلك الأثر ، أثر السكون والرضى

والسرور والانشراح ، أثر البعد عن المنفعة . ثم البعد عن التفكير والارادة وما يجلبان من شقاء وآلام . ولكن الفن لكي يحدث ذلك ، لا بد أن يكون متميزاً بوحدة الفكرة ، وتركيز الغرض

خذوا فن العمارة ، على كل بناء ضخم يدعى فناً . خذوا الهرم ، خذوا هياكل الكرنك خذوا معابد آبائنا المصريين ، هل تحسبون الرهبة التي تعترينا ونحن نرى الى تلك الهياكل ، مجرد أمر طارىء ؟ كلا ، ان روح عبادة الهياكل أو المعابد « الرهبة » وكل حجر في أي موضع ، وكل نقش في السقوف أو الجدران ، حتى الاعمدة ، انما هيئت لتحمل روح الرهبة ، أي أن الفن يجب أن يبذل روحاً خاصاً ، ان مجرد النقل من الطبيعة ، مجرد البناء ، مجرد الشدو بالاغنية ، ان لم يحمل روح الغرض ، لا ينفذ الى أرواحنا . وهذا هو السر في أن أكثر المعروض اليوم على أنظارنا ، لا يمكن أن يخدعنا بالفخامة ولا بالالوان ولا الاضواء . ان النيل لا يعبر عن شيء بمجرد رسمه كنهر يجري . وان الاشجار التي على شاطئيه ان رسمت كمجرد اشجار لا تعبر عن شيء . أعطني المصري الصميم الذي يعطي مياه النيل روح مصر الجليلة العريقة ، والاشجار روح مصر الوديعة الرقيقة ، اعطني هذا وانا أسجد مسروراً لفنه

***

اذا نفذت معاني الروح الى روحي ، فقد حدث ما قد سبق الى الفنان الحق وهو يصوره ، حدث ما يسميه شوبنهاور وحقاً زواج الفن ان الشيء يغدو أنثى ، والفنان يكون ذكراً بكل معنى الرجولة ، ويعقب ذلك زواج ، ويعقبه حمل فميلاد فخلق !

فاذا كان غرض الطبيعة في الأصل خدمة المجتمع بواسطة انتشار النسل ، والعمران وازدهار الربوع ، واذا كانت الطبيعة تتحايل من أول الخليقة على ذلك الأمر وتنصب له الشراك والفخاخ وكل حيوان انما يعمل لذلك التناسل ، كل حي يعمل له ، فاذا فرغت بعد ذلك ، انصرفت الى زواج أعلى ، وظل الخلق جارياً ولكنه من طراز سماوي . وغايته أروع من ذلك الغرض الأول ، ان الغرض الأول يقتضي الخزي والسعي ، والتعب والكد والجهد ، وأما الغرض الثاني أي زواج الفنان بموضوعه ، ثم اندماج الفنان في الناظر الى أثره الفني ، — غرضه ، ذلك الخلق المتكرر والميلاد المتصل ، خلق المعجزات ، التي تخاطب الاحساس والشعور والخيال ، وتثبت بدورها أن الله القدير لم يخلق شيئاً عبثاً ، وأن الله الذي خلق هذا المجتمع ، لم يخلق الفنان عبثاً ، وانما ليخدم المجتمع خدمة تعلو بمادياته عن الطين ، وتصعد بروحه الى آفاق النور وأبراج الاسرار الالهية وماذا تريدون خدمة للمجتمع بعد ذلك . . . .